الشرق والغرب

قديما وحديثا

للأستاذ عريان يوسف سعد

ورث العالم تركة لا يزال يحتفظ بها ويحوطها بحبه ، ولو أن التركة لا تزال موجودة لكان فى ذلك الحق كل الحق . ولكن التركة بعد ما وصل إليه العالم من تطور قد ذابت واستحالت بخارا تبدد فى الآفاق ولم يعد لها من وجود اللهم إلا اسمها وسيرتها وأوصافها .

كان العالم يعتقد أن الأرض مسطحة تشرق عليها الشمس من ناحية وتغرب فى الناحية الأخرى فاصطلح العالم على أن يسمى ناحية شروق الشمس شرقا وناحية غروبها غربا وكان الشرق يبعد عن الغرب بعدا شاسعا يوم كان السير على الأقدام وسيلة انتقال الانسان من مكان إلى مكان فلما استطاع تذليل الحيوان من الحصان والجمل لم تنقص المسافة بين الشرق والغرب فبقى الشرق شرقا والغرب غربا يعتز الشرقيون بشرقهم ويفتخر الغربيون بغربهم وانحدر العالم مع الزمن جيلا بعد جيل يتسلم كل جيل من سابقه تلك التركة تتأثر بها علاقات الإنسان كل التأثر وتتأثر بها العادات والطباع والأخلاق واللباس .

ولقد جاء دورنا وهذا جيلنا ولا تزال تلك التركة بين أيدينا أو لا تزال بين أيدينا صفاتها واسمها ولكن هل هى موجودة حقا أم أنها كما قلت قد تبخرت مادتها ولم يبق إلا تاريخها نظنه حقيقة كما كانت فى الأجيال الماضية .

أين الشرق وأين الغرب ؟ !

العالم يعيش على كرة ضخمة تدور حول نفسها فيستقبل كل جزء منها نور الشمس فى دوره ثم يختفى عن النور ليستقبل جزءا آخر ذلك النور فلا مشرق للشمس ولا مغرب ولا مكان شرق على سطح الأرض ولا مكان غربى ومع ذلك لا يزال العالم يتمسك بتلك التسمية الخاطئة الشرق والغرب .

كان الشرق شرقا وكان الغرب غربا حتى بعد أن عرف العالم أن الأرض كرة تدور واستمر كذلك لأن المسافة بين أجزاء تلك الكرة كانت لا تقطع فى أقل من سنة وكان ابن الشرق للشرق وابن الغرب للغرب لأن الوقت الذى كان يفصل بين الشرق حتى يصل إلى الغربى وبين الغربى حتى يصل إلى الشرق كان وقتا طويلا كافيا لأن يحتفظ كل منهما بطابعه وشخصيته .

فهل العالم الآن وقد أصبح الشرق يستيقظ فى الشرق صباحا ثم يركب طائرة تطير به فيبيت فى الغرب ليلا هل العالم الآن يحوى شرقا وغربا كما كان يحوى الشرق والغرب فى الأجيال الماضية .

لقد أصبح الشرق والغرب فى العالم الحديث بعد تقدم الطيران مكانين متجاورين كالقاهرة وحلوان من مائة سنة فإن الرجل ما كان يستطيع أن يقطع المسافة بينهما فى أقل من يوم فيستيقظ فى القاهرة صباحا ويبيت فى حلوان ليلا .

نعم لقد أصبح الشرق والغرب متجاورين كحلوان والقاهرة أو باريس وفرساى .

بل لقد أصبح العالم كله كمدينة واحدة بل كغرفة واحدة .

أصبح كمدينة واحدة تنتقل الرسائل والصور من طرف العالم إلى طرفه الآخر بالبرق فى ساعة واحدة كما كانت الرسائل تنقل فى المدينة الواحدة فى الأجيال الماضية بواسطة السعاة مشاة وركبانا .

وأصبح العالم كغرفة واحدة يسمع الرجل فى طرف العالم حديث الرجل فى الطرف الآخر بواسطة الراديو والتليفون اللاسلكى .

وبعد قليل سيرى الرجل فى طرف العالم صاحبه فى طرفه الآخر حين يعمم التليفزيون .

الشرق ينتقل إلى الغرب بين الصباح والمساء والشرق يتحدث إلى الغرب وينصت إلى حديثه فى لمح البصر .

فكيف يبقيان وهذه صلتهما ببعضهما كيف يبقيان كما كان أجدادهم شرقيا وغربيا .

كان أجدادنا فى الشرق منقطعين عن أجداد الغربيين فى الغرب انقطاعا يبيح أن يكون أحدهما شرقيا والآخر غربيا فى التفكير واللباس والعادات والعلوم وكل شىء .

أما الآن فقد امتزج العالم ببعضه شرقيه وغربيه فلا يمر جيل آخر حتى يلبس العالم كله لباسا واحدا وتتقارب أذواقهم فى الغذاء والطعام حتى تصبح واحدة .

أبعد هذا يجوز أن يبقى شرق وغرب وشرقى وغربى وقد محا الطيران المسافة بين الشرق والغرب فتجاورا ومحا اللاسلكى الانقطاع الذى كان بينهما فتحادثا وتسامعا ؟ ! .

هذه تركة كما بدأت القول لم يعد لها وجود ولم يبق فى العالم منها إلا صفات وأسماء لست أدرى السر فى الاحتفاظ بها أو بعبارة أصح أرى أن السر فى الاحتفاظ بها هو تعلق الناس بالقديم عتزازا به وتعلقا بذكرياته .

عزيز من غير شك على المحافظين أن يسمعوا هذا القول وسيكون حظه من التخطئة والسفه كبيرا ان كان له حظ على الإطلاق فأكبر ظنى أنه سوف يقابل بالإعراض والإهمال فهو أقرب إلى الهذيان فى نظر المحافظين منه إلى القول المعقول .

الشرق والغرب اللذان عرفهما العالم منذ عرف العالم نفسه وعرف الشمس والقمر والجهات الأربع الشرق والغرب اللذان يحددان العالم الشرق والغرب يجدان فى آخر الزمان من يقول بعدم وجودهما .

هذا كثير من غير شك على العقل أن يسلم به و إذا سلم العقل بأن الشرق والغرب قد اختفيا إلا من كتب التاريخ فإن العقل نفسه يهدد بأن يختفى هو أيضا .

ولكن بالرغم من هذا أكرر أن الشرق والغرب قد امتزجا ولا أقول قد اختفيا امتزجا فأصبحا شيئا واحدا فقد محا العلم ذلك الفارق بينهما محا العلم بالطيران المسافة بين الشرق والغرب فبينهما اليوم نزهة يوم واحد .

ومحا العلم ما كان بينهما من انقطاع أو شبه انقطاع بعد الاتصال العلمى والفكرى والروحى فبعد أن كانت الفكرة تنتقل من الشرق إلى الغرب فى جيل أو أجيال أصبحت تنتقل فى لحظة إذ يذيعها الراديو فيسمعها من فى أقصى العالم كما يسمعها من يجلس إلى صاحبها وهو يتحدث عنها فى نفس الغرفة .

لقد امتزج الشرق بالغرب ولم يبق إلا أن يعترف العالم بامتزاجهما فيصبحان شيئا واحدا أو يصبحان من أحاديث الماضى وذكريات الأجيال .

لو أن الشاعر الذى وجد فى بعد الشرق عن الغرب مادة لتصويره بعد الحى عن الميت حين قال :

والشرق نحو الغرب أقرب شقة من بعد تلك الخمسة الأشبار

أو أنه عاش اليوم لوجد أن الشقة بين الشرق والغرب يقطعها بين الصباح والمساء لما قارن بين تلك الشقة و بين المسافة التى تفصله عن وحيده وهو فى قبر لا يبعد فيه عنه أكثر من خمسة أشبار ولبحث عن شقة بين الأرض والسماء أو بين الأرض والقمر يقارن بها بعده عن وحيده فى لحده .

الشرق والغرب بعد أن كانا مهبطى الوحى على ساكنى الأرض فى طرفيها المتقابلين أصبحا الآن مكانا واحدا أو مكانين متلاصقين لا يفصل الناس فيهما إلا فاصل بسيط إن أراد أحدهما لقاء أخيه فى الطرف الآخر من الأرض يتلاقيان بين يوم وليلة فإن أراد التخاطب فكأنهما فى غرفة واحدة صغيرة .

لعل بدء الحديث قد وضح الآن ولعل تركة العالم وهى الشرق والغرب قد أصبحت فى الحقيقة تركة غير موجودة لم يبق منها إلا الاسم والصفات التى عنى الماضى بتفصيلها وتأليف الكتب فى أوجه الخلاف بين طرفيها .

ولعل الإنسان يتجه بعد اليوم إلى تنمية هذا التقارب وزيادة أواصره ولعل ما بقى من أوجه الخلاف بين الشرق والغرب تجد من يعمل على محوها فيصبح الإنسان فى العالم إنسانا واحدا لا شرقيا ولا غربيا ولعل هذا يتم فى جيلين أو ثلاثة ولكن شيئا واحدا لا أشك فيه وهو أن هذا الامتزاج بين الشرق والغرب وقد مهد له العلم فى هذا النصف من القرن العشرين لن يتم قبل أن يغيب هذا القرن عن الوجود و يأتى قرن جديد لم يلطخ بالدماء

قرن يكون قد سبقه تمهيد طويل لمزج أجزاء العالم المتباعدة ببعضها بعد أن أصبح ذلك البعد بين أجزاء العالم عديم الأثر لا يفصل بين الإنسان والإنسان .

كان الكتاب يؤلف فى الشرق فلا يصل إلى الغرب إلا بعد جيل أو أجيال فكان بين الشرق والغرب انقطاع تام فى الفكر .

أما الآن فالفكرة تنبت فى الغرب فيراها الشرق ساعة ظهورها وأقرب دليل على ذلك مشروع بيقردج الذى ما كاد يظهر فى بريطانيا حتى عرفه العالم كله .

أين هذا من أيام الشرق والغرب حين احتفظ كل منهما بآرائه وأفكاره أجيالا طوالا لا يحس أحدهما بما عند الآخر ؟

كان الشرق شرقا وكان الغرب غربا فيما مضى أما الآن فلا شرق ولا غرب إنما العالم كله مكان واحد يتبادل سكانه الأفكار والآراء والسلع كأنه أجزاء المملكة الواحدة إذا قيس الحال بما كان عليه فى الأجيال الماضية .

ولكن للقديم سلطانا على العقل عسير عليه أن يتخلص منه إلا بمضى الزمن الذى أكسب ذلك القديم سلطانه ولكن السرعة التى عمت العالم فى كل شىء ستجعل ذلك التغيير أسرع خطى وأقرب نتيجة .

عريان يوسف سعد